

الخطوة الثانية.. الالتزام الأمثل

د. صالح آدم بيلو

استوقفتني كلمات لأحد

أفاضل الكاتبن مخاطباً أحد قرائه قائلاً: «لا
أتفق مع من يحصر الأدب المتلزم في نطاق ضيق. كل
فكرة محلقة وجميلة، ولا تتصادم مع معطياتنا
الحضارية، نحن أولى بها. أشيد بهذه الآفاق الرحبة
التي تتحرك من خلالها...»!

وفي البدء أشير إلى أن الكاتب يريد بعبارة «معطياتنا الحضارية» الإسلام وما ينبثق عنه من مبادئ وقيم وموجّهات، وهذا عمل صالح وطيب، وإن كنت أحب أن نكون صرحاء دائماً، وأكثر مواجهة في تسمية الأشياء بأسمائها، ولا نخجل أبداً من ذكر: الإسلام... الدين... الأخلاق... بديل هذه المصطلحات والتسميات الخجولة المتوارية في عالم كثر فيه التلاعب بالألفاظ المطاطية وتخويرها تسهلاً للدخول من هنا، والخروج من هناك... ما يريده كاتبنا الفاضل - وهذا هو أصل الموضوع الذي استوقفتني - أن الالتزام الأدبي يعني كل فكرة محلقة وجميلة لا تتصادم مع الإسلام ومبادئه وقيمه... ثم ينتهي البيان، وينطلق الأدباء في كل واد يهيمون!... أصبح هذا الكلام؟!!

نبادر ونقول في سرعة: كلا... كلا... إن هذا هو نصف الحقيقة، أما نصفها الآخر؛ فشيء آخر كثيراً ما نسهو عنه، ونهمله إهمالاً... ذلك أن الالتزام الإسلامي الذي تريده - وهو كذلك حقاً وصدقاً - له درجتان اثنتان، لا تقوم أولاهما ولا تكتمل وتعطي ثمرتها المرجوة إلا بوجود ثانيتهما، وتندم الثانية هذه وتذهب بدداً، ما لم تقم وترتكز على الأولى ارتكازاً.

فالرافعي - بهذه العبارة - يقطع الشك باليقين، ويصرح أنه ليس (الكلاسيكي) العقلي، وليس (الرومانسي) العاطفي، ولكنه الأديب الإسلامي الذي يضع هذا وذلك في خدمة الإنسان، كما وضعها رب الإنسان والكون في توازن دقيق، واتساق بديع، نبه الرافعي إلى أهميته في عمل الأديب؛ فواصل يقول^(١): «ثم إن الاتساق والخير، والحق، والجمال - وهي التي تجعل للحياة الإنسانية أسرارها - أمور غير طبيعية في عالم يقوم على الاضطراب والأثرة والنزاع والشهوات، فمن ذلك يأتي الشاعر والأديب وذو الفن علاجاً من حكمة الحياة للحياة، فيبدعون لتلك الصفات الإنسانية الجميلة عالمها الذي تكون طبيعية فيه، وهو عالم أركانه: الاتساق في المعاني التي يجري فيها، والجمال في التعبير الذي يتأدى به، والحق في الفكر الذي يقوم عليه، والخير في الغرض الذي يساق له. ويكون في الأدب من النقص والكمال بحسب ما يجتمع له من هذه الأربعة، ولا معيار أدق منها إن ذهب تعتبره بالنظر والرأي، ففي عمل الأديب تخرج الحقيقة مضافاً إليها الفن، ويحيى التعبير مزيداً فيه الجمال، وتمثل الطبيعة الجامدة خارجة من نفس حية. ويظهر الكلام وفيه رقة حياة القلب، وحرارتها، وشعورها، وانتظامها ودقتها الموسيقي؛ وتلبس الشهوات الإنسانية شكلها المهذب لتكون بسبب من تقرير المثل الأعلى، الذي هو السر في ثورة الخالد من الإنسان على الفاني، والذي هو الغاية الأخيرة من الأدب والفن معا...».

فأين هي (الرومانسية) من هذه الآراء والأفكار، أو أين هو الرافعي بفكره ذلك من الرومانسية؟! قد تبدو ملامح (الرومانسية) - أو بعض ملامحها - في بعض هذه الأركان الأربعة، كما قد تكون (الكلاسيكية)، أو (الواقعية)، أو (السير يالبة) كذلك... لكن هذه الأركان الأربعة حين تجتمع - كما قرر الرافعي - تسمو بالأديب عن أن تكون (الرومانسية) ونحوها من التوجهات الشاذة والمذهبيات الجزئية الوافدة... هي وجهته أو معياره الفني، بل إنها لتعلن عن وجهته الإسلامية الشاملة، ذات الاتساق والتوازن والتوحد، منبهة إلى أن الناقد المحايد الحقيق بهذا اللقب، يجب ألا يخضع في نقده لأي نظرة جزئية، سواء في ذلك نظره إلى الأدب، ونظره إلى الأديب.

الهوامش:

- (١) مصطفى صادق الرافعي، رائد الرمزية العربية المظلة على السوربالية، ص ٢٨٥.
- (٢) وحى القلم، ٢١٢/٣.
- (٣) السابق، الموضوع نفسه.
- (٤) السابق، ٢١٣/٣.
- (٥) السابق، الموضوع نفسه.

وجهان - لا نخترع ذلك اختراعاً من عند أنفسنا، ثم نطرحه للناس ليروج بينهم باسم الإسلام . . . كلاً! . . . إنَّ ما نقوله هو من أوليات مفهومات الإسلام وبالضرورة؛ إذ أول ما يخطوه المرء - بعد إسلامه أن يمسك عليه جوارحه، وينتهي عن الشرِّ والإثم والفساد . . . وخطوة الإمساك هذه، هي خطوة سلبية، وإنَّ كان فيها جانب إيجابي بمفهوم آخر ليس هذا محل تبيان! . . .

والسؤال هنا، هو: هل يتم إيمان المرء وإسلامه بهذه الخطوة وحدها، أم لابد أن تتلوها خطوات كلها عملية إيجابية فاعلة ببناء بها يقوم مجتمع الفضيلة والإيمان والظهر والجمال؟! . . .

ماذا لو قال هذا المسلم الممتنع عن مقارفة الشرور والآثام: إنني اكتفي بهذا القدر؛ فبه تبرأ ذمتي، وما عليّ من شيء بعدها للناس، ولا لرب الناس؟! أترأه بهذا تبرأ ذمته حقاً وصدقاً؟! . . .

أما أنا فلا أرى لتبرئته من سبيل؛ ذلك أنَّه لابد بعد الإيمان والكف عن الشرِّ من عمل صالح، حتى يكون في زمرة «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» .

إذا كان هذا هو الحال بالنسبة للفرد العادي . . . فكيف بأصحاب القدرات والمواهب الخاصة، والمميزات المتفردة التي حباهم بها رب العباد من العلماء والحكماء والمفكرين والمبدعين المنشئين؟! . . . إنَّ المسألة بالنسبة إليهم أدخل، والتكليف أوجب؛ فكلما زيدت المزايا والمخصصات؛ زيدت التكليفات والواجبات! . . .

ونحن حين نطلب من الأديب المسلم أن يخطو بالتزامه «الخطوة الثانية» ولا يقف عند الأولى؛ إنَّما نكره له أن يكون نصف ملتزم، يعني «نصف شيء» . . . رجل في الركاب ورجل في التراب! . . . وهذا لا يكون عند الله وجيهاً! . . .

إننا نريد أن نرفع من شأنه، ونُعَلِّي من قدره ونُبدِّعه، حتى يكون وجيهاً، وشيئاً مذكوراً عن الله والناس . . . لأنَّه بهذا يصير صاحب رسالة وغاية في الحياة وعضواً فاعلاً يؤدِّي وظيفة فيها، وليس كمَّ مهملاً وعبئاً ثقيلاً محسوباً عليها يرهقها ذلة، في الوقت الذي تنتظر منه هذه الحياة أن يساهم في إنسانها وبنائها وتعميرها، وتطورها وتغييرها إلى ما هو أحسن وأجمل! . . . وتأبى له أن يقف بها عند حدودها الراهنة .

الدرجة الأولى من الالتزام الإسلامي، هي: أن المبدع والأديب الملتزم إسلامياً، حين يُبدع أدباً وفناً، يحرص على ألا يتصادم فنّه هذا مع قيمه وقيم مجتمعه المسلم التي آمن بها واعتنقها، وهي قيم دينية وأخلاقية . . . فهو من جانب لا يحقرها ولا يُهَيِّئ من شأنها، ولا يسخر بها . . . يعني أنَّه يحترمها ويُجِلُّها، ومن جانب آخر هو يتباعد عن أن يأتي عملاً فنياً تخريبياً يُغري بمقارفة الآثام والشرور، ويحرص على مقاربة الرذائل والفواحش . . . وإلا، إنَّ هو فعل ذلك عُذَّ من المفسدين في الأرض! . . .

إن المبدع المسلم حين يبدع، يتباعد عن أن يكون مخرباً «مفسداً» بأي من الصورتين السالفتين، فيمسك شرّه، ويتنأى عن الإفساد والإضلال، يكون فناناً ملتزماً دون ريب، وعمله هذا التزام محمود مشكور على آية حال! . . . ولكن أيّ التزام؟ وما درجة هذا الالتزام وما مستواه؟ .

إنَّه التزام الحد الأدنى . . . الالتزام السلبي غير الإيجابي؛ لأنَّه التزام الكف والامتناع، وهو على أحسن الفروض «نصف التزام» إذ صرح هذا التعبير.

أما الدرجة الأخرى من الالتزام الإسلامي، فهي الالتزام الأرفع والأسمى والأتمثل . . . التزام الإيجاب الذي يحتاج إلى بذل الجهد والطاقة لإيجاد شيء وإتقانه وإحسانه . . . حيث لا يكتفي هذا الملتزم بمجانبة الفساد والإفساد والابتعاد عنهما، ولكن يسعى للبناء والإنشاء والتعمير وإتقان هذا البناء وتحسينه! . . . نريد بذلك: أن الأديب المبدع الملتزم إسلامياً، لا يقف بأعماله الفنية عند حدِّ الامتناع عن عمليات التخريب العقدي والأخلاقي . . . ولكن عليه أن يخطو خطوة أخرى إلى الأمام، فيوظف أدبه وفنّه توظيفاً فنياً لبناء مجتمعه بقيمه الدينية والخلقية، ويرسخ فيه قيم الإيمان والنظافة والظهر والجمال، ويقاوم فيه الشرِّ والفساد والشَّين والقبح وكلَّ ما «يتصادم» مع مُعطيات مجتمع الخير والفضيلة والجمال . . . مجتمع الإسلام وما يُشَوِّه وجهه السمح الجميل! . . .

وبهذا نرى أن الالتزام الإسلامي، التزامان: التزام سلبي، وآخر إيجابي . . . أو قل: هو التزام ذو وجهين: وجه في الجانب الأدنى، وآخر في الجانب الأعلى . . . والعُمَلَّة . . . لا تكون صالحة للتداول ما لم يكن لها وجهان صحيحان . . . وإلا؛ فهي عملة زائفة لا تجد قبولا ولا رواجاً، ومآلها الطرح والتبذير بعيداً. هذا إذا لم يُجَلَّ المتعامل بها إلى ساحات القضاء! . . .

ونحن حين نقول إن الالتزام الإسلامي إنَّما هو التزامان - أو قل: التزام له